

خطبة الجامع الأموي لفضيلة الشيخ مأمون رحمة

٢٥ من ربيع الأول ١٤٣٦ هـ / ١٦ من كانون الثاني ٢٠١٥ م

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله، اللهم صل وسلم وبارك على صاحب الخلق العظيم محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وارض اللهم عن الصحابة ومن اهتدى بهديهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين. عباد الله، أوصي نفسي وإياكم بتقوى الله عز وجل، واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين. يقول المولى رحمته مخاطباً ومادحاً الحبيب المصطفى صلوات الله عليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

لقد ورد عن سيد الخلق الناطق بالحق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((إنما بعثت معلماً)) ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).

معاشر الإخوة: إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يصطنع عبداً لنفسه يُنشئه تنشئة لا أثر فيها لتوجيه الناس ولا محل فيها لرعاية أحد من الأقربين أو الأبعدين، ولا حاجة فيها لتدخل العباد ما دام الأمر من قبل ومن بعد يخص السيد وحده، لما فقدت أم موسى وليدها وهي لما تنته بعد من آثار وضعه، فهل فقد موسى عطف الوجود حين صرف عن صدر أمه واستقبلته الأمواج المائجة المائجة بعد أن ألقى التابوت بوديعته الغالية في ثبج اليم الضامي؟ لا، لأن الله عز وجل الذي تخفق اللجج بتسيحه كان قد تكفل بحفظه ورعايته، وكذلك كان حال محمد صلوات الله عليه في بحر الحياة، حيث برز إلى الوجود وقد فقد حنان أبيه، ولكنه لم يفقد حنان ربه، وماتت أمه في الطريق بين مكة والمدينة وعمره لم يتجاوز خمس سنوات، ومات جده وآواه عمه أبو طالب، وكان رجلاً فقيراً نبيلاً، فكان على اليتيم الفريد أن يعمل مع عمه ليعيش، فتراه في العاشرة من عمره يُسافر ويتاجر ويكدح، حتى إذا رآه أحد الرهبان وقد نُضِحَ إشراق روحه على قسماط وجهه أدرك أن أموراً في مستقبل الإنسانية ستقضى على يدي هذا الشاب، فهو يتساءل عنه وعن والده، ثم يُتمتم ما ينبغي أن يكون أبو هذا حياً، وهب يا صاحبي أن أباه كان حياً، ماذا يفعل له؟ لقد كان يعقوب حياً وأبي الله أن ينتزع يوسف من بين أحضانه، وبدلاً من أن يتربى في بيت النبوة درج بين مفاتن القصور وظلمات السجون، وأحاط به من لا يُعينون على خير، بل من يُغرون بالشر ويدفعون

إليه دفعاً، فماذا كان مستقبل يوسف عليه السلام؟ كان لهب الشقاء الذي صادفه حرارة أنضجت بذور الشرف في كيانه الخاص، فكانت نفسه تتفتق عن إيمان وشرف وعفاف وصدق، هي العناصر التي زوده بها القدر الأعلى وهو جنين، والرجال الذين تصطفيهم العناية العليا يصنعون على هذا الغرار، فليس آباءهم غارقى شمائل العظمة في طبائعهم بالتربية والتكلف، بل إن آباءهم لا يصنعون شيئاً، وما ضرَّ محمداً أن يُولد يتيماً، وصدق الراهب الذي قال: (ما ينبغي أن يكون أبو هذا حياً) إن الذي قال لموسى عليه السلام: ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] قال لمحمد ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

إن الأنبياء -يا سادة- قبل أن يُبعثوا لا يخطر بأنفسهم شيء عن مستقبلهم المغيب، ولا يتشوقون إلى وحي أو يترقبون مجيء ملك، وقت الاختيار الأعلى ومكانه ليس إليهم في قليل أو كثير، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ومن هنا كان حياة الأنبياء لا تتجاوز أشخاصهم، ومن هنا كانت حياة الأنبياء قبل استقبال الوحي لا تتجاوز أشخاصهم، نعي بذلك ليست مناط تشريع ولا مصدر أسوة، وكل ما يُقال في أشخاص الأنبياء أن معادتهم النفسية والفكرية لا بُد أن تكون من طراز يُكافئ الوظائف الجسام التي تُوكل إليهم، وأن حياتهم الأولى تمهيد صالح لما يُوشك أن يظهر على أيديهم ويربط الأمم بهم، والأربعين سنة الأولى من حياة النبي ﷺ جاءت على هذا الغرار، إنسان يعيش في مكة يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لا يُعرف بثروة ظاهرة أو قدرة خارقة، ولكن الذي يتفق عليه العدو والصديق أن ثروته من الفضائل والأخلاق كانت رابية، وأن رُجولته التقى فيها ما يعرف العرب وفوق ما يعرفون من مروءة ونبل وسيادة، والأوج الذي عاش فيه محمد ﷺ قبل بعثته هو الذي أخرج خصومه الناقمين يوم أعلن حربه الهائلة على الوثنية وآثارها الاجتماعية والسياسية، لقد هاجمهم بكل سلاح، وكان غيظ قلوبهم شديداً، ومع ذلك كان جمال الصدق يتألق في جبينه ما تخلق في جاهلية ولا إسلام، ونستطيع أن نصف هذه السنين الأربعين بأنها تمثل حياة رجل نقي المعدن شريف السيرة، يُعرف بكل خير ولا يُعرف بشر أبدأ، يُكابد السعي وراء رزقه، فيرعى الغنم صغيراً ويضرب في الأرض كبيراً، والاختلاط بالناس في هذه الميادين قاسٍ على النفس البشرية، وقد خرج محمد ﷺ من هذه الظروف جميعاً موفور العصمة والفتنة، عاشر قومه في نطاق الضرورة الماسة واعتزلهم في جبال مكة ينشد في صمتها وعزلتها راحة القلب واللب،

حتى نزل عليه الحق بغار حراء، ويومئذ عرف أن رب العالمين قد اصطفاه لأمر عظيم، كما يتحول الجنين -يا سادة- بعد نفخ الروح فيه خلقاً آخر تتحول حياة المرسلين بعد استقبال الوحي نسقاً آخر، فمحمد عليه الصلاة والسلام عندما شرع يستدرج القرآن بين جنبيه كان قبل غيره من الناس أول من ينتفع ويرتفع به بما تضمنه من صدق وجلال وخير ومرحمة، إن الرجل الذي خلت فطرته من شهوات الدنيا وأكدارها انتشرت في أرجائه الباطنة شعاعات الوحي، فهي تشرق في شمائله ومسالكه كما تتألق الآفاق في صحوة صافية، وقد أومأت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى هذا المعنى عندما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابت: (كان خلقه القرآن).

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم قرآناً حياً في مسلكه، في خلقه، في شمائله، في عبادته، في جهاده، في حربه، في سلمه، في سفره، في إقامته، في انتصاره، في هزيمته، في صحته، في مرضه، في خلوته، في جلوته، في شؤونه كلها، إنك واجد ذلك كله نظرياً في كتاب الله، ولكنك واجد التنفيذ العملي له ظاهراً وباطناً في سيرة محمد نبي القرآن.

إن أشخاص الأنبياء ليست جسوراً لهدايات السماء وحسب، لا، إنهم ترجمة عملية لمراد الله من خلقه، ويمتاز محمد صلى الله عليه وسلم بأنه قدّم للبشرية أكبر مجموعة من النماذج العملية للإنسانية الفاضلة والعبودية المخلصة. إن هذا القرآن إذا تجاوب إنسان معه صاغه صياغة جديدة في أحواله كلها، ومن هنا ندرك أنه عندما تجاوب الصحابة مع نبيهم صلوات ربي وسلامه عليه وجعلوه مرآة لهم استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يطبع على غراره جمهوراً من أصحابه، كانت أخلاقهم القرآن، يتلون به بألسنتهم، ويحيون به في شؤونهم كلها.

كأنهم من نجوم حياة صنعوا

هم الرجال المصايح الذين هم

أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا

أخلاقهم نورهم من أي ناحية

مَدِينَةُ رِوَاقِ الْمَشْرِقِ

إن الإنسان كائن عظيم حقاً بيد أن عظمته تكمن في نسبه السماوي الروحي، لا في نسبه الأرضي المادي، ومن الناس من يُقدرون نسبهم الإلهي هذا، فيجعلون الحياة تزدان بالمعرفة والكرامة والفضيلة، وتسخير الكون للإنسان، ومنهم تغلبهم نزعات الحمأ المسنون، فيجعلون الحياة تسود بالشهوات والمظالم والأناية وتسخير الإنسان لأنفه شيء في الكون.

في عام ألف وتسعمئة وأربعة وتسعين عقدت هيئة الأمم المتحدة بالقاهرة مؤتمر السكان، إنه لم ينعقد هذا المؤتمر للثناء على الإسلام أو للتنويه بأخلاقه ومبادئه، بل عُقد لمحاربة الفضائل والمكارم من أجل تمييع أخلاق الأمة، وإنك لتعجب عندما تجد مؤتمرات كثيرة تُقام في عديد من بلدان العالم تعمل على رفع المستوى الاقتصادي، وتنادي برفع المستوى الاقتصادي، في الوقت الذي تجدها تتجاهل أو تتناسى رفع المستوى الأخلاقي للأمم والشعوب، وما يجري اليوم في البلدان العربية من قتل ودمار وخراب يرجع إلى انسلاخ البشرية من القيم والأخلاق، ومن هنا أعلنت وزارة الأوقاف في الجمهورية العربية السورية مشروع فضيلة، الذي يدعو إلى التمسك بأخلاق العروبة والإسلام، مُستلهمة ذلك من قول القائد المؤمن بشار حافظ الأسد حفظه الله ورعاه عندما قال: (أزمتنا أزمة أخلاق) ومشروع فضيلة -يا سادة- يلفت نظر المسلمين في العالم أن بنك الأخلاق عندنا مليء بالفضائل والمكارم، ويستحيل أن يعلن هذا البنك الأخلاقي إفلاسه، لأن الذي يمدّه ويدعمه مصدران لا يمكن أن يجفّا وينضبّا، هما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

معاشر الإخوة: ما حدث في فرنسا من اعتداء إرهابي إجرامي على صحافة "شارلي إيبدو" نحن كمسلمين قولاً واحداً نُدين هذا العمل الإجرامي، ونحن كعرب لا نرضى بهذا العمل على الإطلاق، لماذا؟ لأننا نقول للإرهابيين الذين صنعتهم فرنسا وأمريكا وبريطانيا بتمويل سعودي قطري تركي، نقول للعالم: لقد أمرنا ديننا أن نُدافع عن مقدساتنا وحقوقنا ورمزنا الأعظم الديني مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ بالحجة والبيان لا بالقتل والإجرام، فمحمد شمس لا يُمكن لأحد أن يُطفئ شعاعها مهما عمل، ومحمد بحر لا يمكن لحجر أن يُعكر صفوه، ولكننا نقول للعالم بأسره لا سيما ناشد الأمة العربية والإسلامية أن تعود إلى أخلاق مُحَمَّد ﷺ، حتى لا يعاملنا الغرب بالقسوة والقهر والقتل، ويصفنا بالقتلة المجرمين.

أخلاقنا تأمرنا كما قال الله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] فنقول للساسة الفرنسيين وقلناها سابقاً "لساركوزي" نقول "لهولاند" و "جون ماكين" و "فايبوس" وغيرهم من هؤلاء المتدهورين الذين لا يعرفون كيف يتعاملون مع الدول الأخرى ولا حتى مع شعوبها، نقول لهم: أستم أنتم من صنع الإرهاب، قبل أن تتهموا سوريا -أيها الفرنسيون- كيف قبل أن تتهموا سوريا هذا الوطن العريق بأنه مُستتقع للإرهاب والإجرام، أما أنتم تعترفون اليوم بأن مئات الإرهابيين من الفرنسيين الصعاليك جاؤوا إلى سورية لقتل شعبنا وهتك أعراضنا، أيها الفرنسيون، أوباما، السعودية، أردوغان،

أعطونا سورياً واحداً قام بعمل إجرامي في أي بلد عربي أو أوروبي، أعطونا، أما بلادنا اليوم فقد أصبحت مليئة بالصعاليك والخنازير الذين أرسلتموهم إلينا لكي يسلبوا نعمة الأمن والأمان حتى من بيوتنا. أيها الإخوة: إنني أناشد العالم الإسلامي والعربي، وأناشد علماء الأمة وعلى رأسهم الأزهر الشريف، أن يصنعوا مؤتمرات تعمل على رفع المستوى الأخلاقي لدى الشعوب.

نحن اليوم إن عدنا إلى أخلاق مُحَمَّدٍ ﷺ عادت لنا حياتنا وسعادتنا، وعاد لنا نصرنا وقوتنا وعزيمتنا، فنحن أقوياء بأخلاقنا، ولو لم نكن أقوياء بأخلاقنا ما صمدت سورية أربع سنوات، لو لم نكن أقوياء بعزيمتنا وإرادتنا ما صمدت سورية أمام مكرهم وطغيانهم وجبروتهم وكفرهم أربع سنوات، لو لم نكن أقوياء بحقوقنا وبالدفاع عن أرضنا لما وقف هذا الوطن ولما استطاع أن يصمد ولا أياماً قليلة، فهل من عودة أيها المسلمون إلى مُحَمَّدٍ ﷺ، نبي القرآن ونبي الإسلام، لكي نستعيد سيرته العطرة، ولكي نكون دعاة حقيقيين، مسلمين حقيقيين، نبين للعالم بأسره أن مُحَمَّدًا ﷺ، نبي الحب، نبي الرحمة، نبي السلام، نبي التراحم، نبي الهدى، هذا الذي قال الله في حقه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. أقول قولي هذا، والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين. عباد الله اتقوا الله، واعلموا أنكم ملاقوه، وأن الله غير غافل عنكم ولا ساه. اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات والأحياء منهم والأموات، اللهم ارحمنا فإنك بنا رحيم، ولا تعذبنا فإنك علينا قدير، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم زدنا ولا تنقصنا وأعطنا ولا تحرمنا، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً مريعاً سحاً غدقاً طبقاً مجللاً إلى يوم الدين، اللهم إنا نسألك أن تنصر الجيش العربي السوري، اللهم إنا نسألك أن تثبت الأرض تحت أقدامهم، وأن تسدد أهدافهم ورميهم يا رب العالمين، وأن تكون لهم معيناً وناصراً في الحر والبرد يا رب العالمين، وأن تكون لهم معيناً وناصراً، اللهم وفق السيد الرئيس بشار الأسد إلى ما فيه خير البلاد والعباد، وخذ بيده إلى ما تحبه وترضاه، واجعله بشارة خير ونصر للأمة العربية والإسلامية، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.